ولعلّ أوضح ما يشير الى هذا تلك البحوث المعدودة بالآلاف، والتي رافقت اكتشاف اللفائف الفلسطينية، والتي تسمّى خطأ «لفائف البحر الميت»، في الخمسينات، واجتهدت في اقناع العالم بأن المسيحية مجرّد استطالة يهودية، تمهيداً لايجاد مبرّر مقنع عقائدياً، لاعتبار ان الرمز اليهودي هو الرمز العالمي.

في هذا السياق، ستصبح تجربة اليهودي تجربة ذات دلالة شاملة للكشف عن المصير البشري ووعيه، بكل ما يحمله هذا التعميم من تأثير ساحق في العقلية الغربية، وما يتصل برؤاها. وسيجبر حتى الانسان الافريقي الوثني، الذي كان يعبد «جوجو»، على ترتيل صلوات تتحدّث عن اسرائيل و«أرضها الموعودة»، فيدير الكاتب النيجيري نغوجي واتينغو محور روايته «النهر الفاصل» حول رموز توراتية، ويصل الأمر ذروته في حديث مثقفين عرب عن «عودة اليهود المشرّدين الى وطنهم بعد ألفي عام».

القضيـة، اذاً، هي قضيـة التدخّل في نسيج الثقافة الغربية، ومن ثمّ العربية، وكل الثقافات الانسانية؛ التدخّل في نظام نظرتها الى الآخر غير الغربي، حضارة وثقافة ومصيراً، ونظرتها الى نفسها من منظور ثقافة العرق المتميّز.

يمتد هذا الترابط الثقافي، بشكل ملفت للنظر، في تشديد الغربي على قضية التربية. فقبل ان نسمع، في العصر الراهن، من يتحدث عن تأثير الاسماء والصور التوراتية، التي ظلت مدة طويلة جزءاً لا يتجزأ من حياته كمسيحي، كان لويد جورج يتحدث عن تربيته التي تعلّم فيها عن تاريخ اليهود أكثر ممّا تعلم عن تاريخ بلاده بريطانيا. فقد تشبّع «كل التشبّع بتاريخ العرق العبري»، كما قال[٢٢]. وبالمعنى عينه، تحدّث جورج بورخيس، وهو أحد كتّاب الاسبانية، عن «اسرائيل التي تشكّل جزءاً عميقاً منّا جميعاً، وأشدّ عمقاً من الانتساب برابطة الدم أو التحدّر العرقي...»[٢٣].

«التشبّـع باسرائيل»، هذا هو ما يعنيه السياسي البريطاني، وما يؤكده بورخيس، وما ستعنيه جمهرة واسعة من الكتاب والجماعات ذات التأثير الثقافي في الغرب؛ وهذا هو ما يفسّر الرواج الودّي للأدب الصهيـوني في السـوق الغـربي، ومـا يجيب عن أسئلة غسـان كنفـاني كيف ان المـرء «يقرأ في التعليقات السياسية الغربية جملاً تكاد تكون منسوخة، نسخاً، عن مواقف وردت في الروايات الصهيونية»[٢٤].

ان حصيلة هذا «التشبّع» أظهرت في تأويل قضايا الوجود، قديماً وراهناً، تأويلاً خاصاً، أي تأويلاً توراتياً.

وقد توجّت لجنة جائزة نوبل (١٩٦٦) هذا التأويل باعتقادها بأن ثمّة «رسالة اسرائيلية لعصرنا»، بدون اشارة حتى الى ماهيّة هذه الرسالة، على اعتبار انها مفهومة ومعروفة في الاطار المرجعي للغرب. ونشرت الروائية البريطانية ايريس مردوخ، في العام ١٩٨٩، رواية تحت عنوان «رسالة الى الكوكب» تدور حول رسالة غامضة يحملها شخص يهودي الى كوكب الارض!

لا بدّ ان نقف عند هذه المسألة مطوّلاً. فثمّة تجربة «يهودية» أصبحت تختصر، أو تكثّف، معاناة الانسـان في التـاريـخ. هكذا تطرح علينا أعمال ابداعية غربية شخصية اليهودي الذي تجلّى في صهيونيته. ونجد أموراً ملفتة للنظر، حين تتحوّل الحرب العالمية، مثلاً، الى «مذبحة نازية لليهود»، وكـأن هذه الحـرب، التي أبـادت ملايـين الغـربيـين، تصبـح مجـرّد مذبحـة لليهود، تماماً كما